جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة : 2021 – 2022

المستوى : ماستر2 السداسي : الأول التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: تاريخ الأبحاث الأثرية في الآثار الإسلامية بالجزائر

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس: البدايات الأولى لأعمال الفرنسيين الأثرية في الجزائر

البدايات الأولى لأعمال الفرنسيين الأثرية في الجزائر

إن البحوث الأثرية تقدم معارف جديدة جد مهمة لا سيما ما يخص المعطيات التاريخية لبلاد الجزائر، فعلى الرغم من كثرة المصادر التاريخية لكنها تبقى شحيحة من حيث المعطيات الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية.

انطلقت البحوث الأثرية في الجزائر منذ أن وضع الاحتلال الفرنسي قدمه فيها، وإن كانت الآثار القديمة قد حظيت بعناية خاصة من حيث الوصف ورسومات المهندسين والرسامين، فإن الآثار الإسلامية لم تلق نفس الاهتمام وفي أحسن الأحوال تم جردها.

قامت السلطات الفرنسية بتعبئة القيادة العسكرية المكلفة بالاحتلال بالإلمام والسيطرة على كل الميادين وأرفقت معهم مجموعة من العلماء والمهندسين والمؤرخين في صفة ضباط بقصد القيام بمثل ما قام به نابليون في مصر، وهذا من أجل الالتزام بأوامر القيادة العليا، على سبيل المثال فقد كاتب المارشال سولت Saulte الأمين العام الدائم للأكاديمية العلمية الفرنسية عام 1833م، طالبا منه التوجه إلى الجزائر والاستفادة مما حققه الضباط المكلفون بالمهام العلمية في الجيش الفرنسي.

ثم قام مجموعة من الضباط بنشر بعض المهام التي قاموا بها على شكل رحلات، مثل الرحلة التي نشرها الضابط روزي Rozet عام 1830م، تحت عنوان رحلة في إيالة الجزائر Un voyage dans la régence d'Alger

والضابط دي كزيفري De xivrey الذي أصدر كتابا تحت عنوان شواهد التاريخ في الجزائر Traces de l'histoire en Algérie عام 1838 م، وقد عرف عليه أنه يجيد العربية وقد حاول الكتابة بها، وخاصة ما كتبه حول تلمسان.

ثم الضابط أزيما Azema الذي كتب كثيرا على منطقة تيارت، ولاسيما النقائش اللاتينية في المنطقة، باعتباره يتقنها، وقد نشرت أبحاثه في جريدة العلماء عام 1837م.

بعد هذه المرحلة قامت القيادة العليا بتشكيل لجنة عسكرية للقيام بمهمة تدوين كل ما يصادف الجيش في تنقلاته من معالم أثرية، وأضفت عليها طابع السرية، وتبلورت الدوافع العسكرية من أجل فكرة البحث عن تاريخ الأجداد، وذلك بإتباع منهجية وصف الطرق العسكرية القديمة، متبعة تلك الطرق بكل تفاصيلها، بالرسم، ووضع الخرائط لتحديد المسافات بين جميع المواقع.

وفي نهاية 1839م توسعت اللجنة لتضم مختصين في الطوبوغرافيا وعلم الخرائط ورسامين، أمثال كاريت 1889 - 1808 Carette ، وقد طلب منهم إعداد بطاقات تتضمن المعلومات الأثرية الميدانية المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا، وقد ألف في ما بعد كتابا به معلومات مفصلة حول الطرق والمعالم الأثرية والتحاليل التاريخية والجغرافية لها، وتم إصدار هذا الكتاب عام 1844م.

ثم أخذ مسار الاهتمام بالطرق الأثرية منحى عسكريا، وذلك في سياق الاستفادة من هذه الطرق الأثرية لجعلها مسارات آمنة للجيش الفرنسي، وبرز في هذا الموضوع ماك كارتي Mac Carty ، الذي غطى نشاطه منطقة تلمسان والغرب الجزائري، ومن بين الأسماء التي ضمتها اللجنة الموسعة الرسام أدولف دولامار Adolph Delamart والمهندس المعماري امابل رافوازي Amable Ravoisier بين 1840 و1844م.

وتجدر الإشارة إلى أن ظهور الإمبراطورية الثانية في عام 1852م كان محطة مهمة في تطوير البحوث الأثرية في الجزائر، إذ تميزت من خلال إنشاء الجمعية التاريخية للجزائر في عام 1856م، بتشجيع من رندون RANDON الحاكم العام، هذه الأخيرة كانت أول شكل من أشكال البحث في المجتمع من خلال نشر نتائج أعمال التنقيب الأثري والتاريخي على الآثار القديمة في المجلة الأفريقية.

الاهتمام بالآثار الإسلامية

ولحس حظ الآثار الإسلامية فقد اهتم رافوزيه Aimable Ravoisier بالمعالم الأثرية الإسلامية، حيث رسم مخططات بعض المباني الأثرية في الجزائر العاصمة، كما أن مستغانم نالت حظا من توجه بعض الباحثين نحوها ، وقام ديلمار Delamare برسم مخطط مسجد غوجل القريب من مدينة سطيف، والذي طمست معالمه تماما، وتم التعرف على بعض بقايا أسوار تعود إلى فترة العصر الوسيط بمدينة قالمة وسطيف، ولكن لم تنطلق الحفريات بشكل منتظم وعلمي بحثا عن الآثار في المواقع الأثرية الإسلامية، سوى في نهاية القرن التاسع عشر ميلادي، وفي حقيقة الأمر نجهل الدوافع التي جعلت حكومة الاحتلال توجه أنظارها إلى هذا التخصص، وتعمل على تطويره، إذ كانت هذه الأمور تابعة مباشرة إلى الوزارة الداخلية في فترة الاحتلال، فهل الأمر كان مقصودا من طرف الباحثين في مجال الآثار القديمة، حيث كانوا يتجاهلون الطبقات الأثرية التي تدل على الاستيطان البشري في الفترة

الإسلامية عندما كانوا يقومون بالحفريات في كل من جميلة وميلة وتيمقاد وشرشال وتبسة....الخ، والجميع يعلم أن تلك المناطق كانت عامرة إبان الفترة الإسلامية حتى الاحتلال الفرنسي، وهل الشروط التقنية ودوافع المنقبين الشخصية كانت وراء تجاهل هؤلاء للطبقات الأثرية الإسلامية مع حرصهم الشديد لدراسة البقايا الأثرية التي تعود إلى الفترة القديمة، وربما إلى ما قبل التاريخ.

ففي فترة الاحتلال الفرنسي، أجريت حفريات هنا وهناك مثل الحفريات التي أقامها دي بيليه De beylié في قلعة بني حماد، كما نالت تاهرت حظا من اهتمام الفرنسيين، فأجرى فيها دوسيس لامار وحورج مارسيه; كادنا حفريات.

ولا ننسى أعمال غرانج Grange في طبنة (تقع أثار مدينة طبنة شرق حوض الحضنة، على بعد 454 كمم جنوب شرق الجزائر العاصمة، وأربعة كلم جنوب مدينة بريكة، على حافة الطريق الوطني رقم 04 الذي يؤدي من بريكة إلى مدوكال. و تشرف هذه المدينة على سهل واسع يحده من الشرق مرتفع جبل الصفار، ومن الغرب شط الحضنة ، وتقع إداريا على الحدود المشتركة بين بمديتي بريكة شمالا وبيطام جنوبا)، وتعود آخر الدراسات الأثرية ولعلها أهمها، والتي أنجزت في موقع طبنة وفي محيطها، إلى بداية القرن 1الماضي، وبالضبط في سنوات 1900- 1901م التي قام بها الملازم رؤول غرانج Raoul Grange.

ويمكن أن نذكر أسماء أخرى اشتغلت في مجال علم الآثار الإسلامية، ومنهم ألفريد بل Alfred Bel قي تلمسان، وشارل بروسلار و إدموند ديتوا في تلمسان، ومارغريت فان برشيم Margarıte Van Berchem في سدراتة بالقرب من ورقلة، وأعمال غولفان Lucien Golvin في أشير بالقرب من المدية وأيضا بقلعة بني حماد.

بعد الاستقلال أعيد فتح بعض الحقول الأثرية التي انطلقت فيها الحفريات إبان فترة الاحتلال، وهذا ليس من منطلق نفس الأهداف، ولكن هذه المواقع الأثرية هي التي فرضت نفسها على الباحثين من حيث المساحة الكبيرة لتلك المواقع الأثرية التي تحتاج جيشا من الأثريين لكشف مكنوناتها.